

تصديرو^(١)

الأستاذ جاستون فييت مدير دار الآثار العربية

إنه لما يشرفني عظيم الشرف أن يهدي المؤلف إليّ هذا الكتاب، وإن هذه العاطفة لسيلة مسلية. تربي بتعاون متين منذ عشر سنين، بذلت فيها كل ما بوسعي في سبيل إرشاده، سواء في القاهرة أم في باريس، إرشاد الأكبر للأصغر سنًا؛ وكنت كلما رأيت مثابرتة، ويقظته العقلية المستطلعة، ونشاطه الذي لا يخمد، زدت له مساعدة وإرشادًا.

وقد تعمق الدكتور زكي في التاريخ وسبر أغواره، وملك ناصية لغات أوربية عديدة، وطاف بمعظم متاحف أوربا دارسًا ومنقبًا؛ فهو إذن قد أعد إعدادًا متينًا ليكون مؤرخًا ممتازًا للفن الإسلامي، فضلًا عن أنه في عنفوان الشباب ويبشر بمستقبل علمي عظيم سيؤتي أطيب الثمرات.

وكتابه هذا أبلغ دليل على ما أقول، فقد سلس للمؤلف قياد الموضوع، ولانت له قناته، مما يشهد بأنه أصبح مؤرخًا فذاً للفن، له طريقة علمية بلغت الغاية دقة، وله في النقد حاسة قوية نافذة.

ومعلوم أن تاريخ الفن مثله كمثل بقية العلوم من حيث جمع الحقائق وتمحيصها وشرحها وترتيبها واستنتاج الأفكار العامة منها؛ غير أنه يختلف عنها من حيث أن مؤرخ الفن يجب أن يكون شغوفًا ببادته، ولا شك في أن جوانح زكي حسن لتنطوي

(١) كُتب بالفرنسية ونقله إلى العربية محمد وهي أفندي سكرتير دار الآثار العربية، ومن خريجي معهد الآثار الإسلامية.

على هذا الشغف، الذي يسمو بصاحبه فوق الحقائق المادية وإن لم يغفلها، ويشير عنده شعور الإعجاب بتراث العصر الإسلامي الوسيط من تحف فنية يلتذ بها الحس وينعم بها العقل، ويولد في نفوس القراء حب هذه التحف التي تدل على مدنية عظيمة.

وقد أفصح موضوع الكتاب وأبان عن نفسه؛ غير أننا وإن لم ننكر ما للفن الإسلامي القديم من بساطة جذابة وما لفن الممالك من هدوء وانسجام، لا بد لنا من الإعجاب بالتحف النفيسة التي أنتجها العصر الفاطمي، فدللت على ما كان لفن الفاطميين من قوة إبداع، وشخصية، وإحساس بالحياة شديد، وأثارت في نفوسنا روح الحمية والحماسة.

ولذا فإنك إذا قرأت هذه الكتاب أدركت تمام الإدراك أن المؤلف لم يكتبه إلا بدافع من الشغف عظيم فبلغ به أقصى حدود الإتيان.

ألف إذن زكي حسن هذا الكتاب مدفوعاً بعامل السرور وحده؛ أعني أنه بذل فيه جهده كله، وقد كنت أشاهده منذ شهور وهو يقوم بتأليفه، وكان يخيل إلي أن ما كان يعترضه من عقبات، ما كان إلا ليزكي نار الحماسة في قلبه.

بل إن العاطفة لتجلى في اختياره موضوع الكتاب؛ فقد راعى الروح القومية، إذ يعد هذا الكتاب الخطوة الأولى في سبيل إحياء ذكرى مرور ألف عام على تأسيس القاهرة. ويحق لدار الآثار العربية أن تزهو، بل ومن واجبها أن تزهو بهذا السبق: أفليست تحوي كنوزاً فاطمية عظيمة القيمة؟

قد يقال: إن دار الآثار العربية تسبق موعد هذه الذكرى؛ ولكننا نرى أننا بحاجة إلى بحوث متينة تذكرنا بما كان عليه الماضي العظيم من فخامة وروعة، فتمهد لأن يكون الاحتفال بهذا العيد احتفالاً لائقاً بذلك الماضي المجيد.

والكتاب قسمان: الأول مقدمة يلتمس فيها المؤلف ما دونه كتاب العصر الوسيط عن زخرف الحياة في الدولة الفاطمية. فهل تأثر المؤرخون العرب في هذا الموضوع بميلهم الغريزي إلى المبالغة في الإشادة والإطباب؟ كلا بل كانوا في وصفهم تلك الحياة صادقين، كما أثبت المؤلف هذه الحقيقة إثباتاً قاطعاً في القسم الثاني من كتابه، وقد عرض فيه التحف الفاطمية كلها.

ودار الآثار العربية تعد أغنى المتاحف رغم تسرب عدد كبير من التحف إلى أوروبا منذ زمان طويل، بل وقبل إنشاء متحفنا في القاهرة. والدار وإن لم تحتو من التحف العاجية والبللورية والبرنزية والنحاسية إلا على عدد يسير، فإن ثروتها من الأخشاب والمنسوجات والخزف لا تعادلها ثروة.

ولعل هذا الكتاب النفيس المحلى بكثير من اللوحات والرسوم يؤثر في القراء تأثيراً يدفعهم إلى تعرف دار الآثار فترى زوارها يزدادون يوماً عن يوم.

وما أريد أن أتحدث عن المراجع الكثيرة التي تذييل الكتاب فإنها قد جعلته جليل النفع عظيم الأثر للمدرسين؛ فالكتاب ومراجعته خير مرشد لهم في تدريسهم تاريخ الفن الإسلامي، وليست هذه المراجع مجرد ثبت يملأ العين؛ وإنما هي نتيجة مجهود وافر، وقد درسها المؤلف كلها، كما يتضح للقارئ عند قراءته ما كتبه من الحواشي في أسفل الصفحات.

وإني أتمنى أن يكون هذا الكتاب شيقاً للقارئ كما كان للمؤلف نفسه، وأن يزيد عند المصريين -وكدت أن أسميهم بني وطني، إذ صارت مصر لي وطناً ثانياً- شعورهم بماضيهم الباهر وأن يقوي إيمانهم به واعتزازهم، فالإيمان بالماضي أساس وطيء لوطنية قوية متسامحة، كما أتمنى أن يضاعف الكتاب في نفوس المصريين حب البحث ويرهف فيهم الإحساس بالجمال.

جاستون فييت

كلمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

كانت نواة هذا الكتاب أبحاثاً أعدتها في الستين الماضيتين وألقيت جزءاً منها في المؤتمر الذي عقده المجمع المصري للثقافة العلمية بالقاهرة في مارس سنة ١٩٣٧.

ويسرني أن أنتهز هذه الفرصة لأقدم للأستاذ فييت مدير دار الآثار العربية خالص الشكر على ثمين تشجيعه وجميل عونه.

كما أشكر حضرات الأساتذة وأصحاب السعادة والعزة أعضاء المجمع المصري للثقافة العلمية، فقد كان لحسن ثقتهم فضل كبير في تأليف هذا الكتاب.

ولن يفوتني أن أنوّه بالعناية التي بذلها حضرة محمد نديم أفندي ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية في سبيل طبع الكتاب وحسن تنسيقه على هذا النحو الذي يفخر به فن الطباعة في مصر.

سبتمبر سنة ١٩٣٧

زكي محمد حسن